رواية عين اسفينه

القدس: ٢٨-١٢-٢٠٠٥ ناقشت الندوة رواية "**عين اسفينه**" **للأديب خضر محجز**، تقع الرواية التي صدرت عام ٢٠٠٥ عن منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين في ٢٣٠ صفحة من الحجم الكبير.

بدأ النقاش **جميل السلحوت** فقال:

واضح أننا أمام أديب متميز، وهو متمكن في فنّ الرواية، وروايته التي نحن بصددها هي الثالثة التي تنشر له، وقد سبق وأن قرأت له روايته الثانية "اقتلوني ومالكا" التي صدرت عام ١٩٩٨، وكان متميزا فيها أيضا، وروايته الأولى هي "قفص لكل الطيور" كما صدر له ديوانا شعر أيضا، غير أن مؤلفاته لم تصل الى الضفة الغربية والقدس، فالوصول الى قطاع غزة من الضفة الغربية أو العكس، أصبح ضربا من ضروب الإستحالة خصوصًا منذ العام ١٩٩٤ أي منذ إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية، وليس من باب المبالغة أن السفر من القدس الى أي عاصمة أوروبية او امريكية بات أسهل من السفر إلى قطاع غزة، وأن وصول الكتب من العواصم العربية هي أيضا أسهل من وصولها الى قطاع غزة والعكس صحيح أيضا.

اسم الرواية

معروف أن الأديب خضر محجز كان أحد المبعدين الفلسطينيين البالغ عددهم اربعمائة وخمسة عشر شخصا الى الجنوب اللبناني او الى المنطقة التي عرفت بمرج الزهور، وذلك في ١٧ كانون اول ١٩٩٢، وقد عاد مائة وتسعة وثمانون شخصا منهم في ١٠ ايلول ١٩٩٢، في حين عاد الباقون باستثناء ثمانية عشر شخصا في ١٥ كانون اول ١٩٩٣. والرواية تدور غالبية أحداثها في منطقة الابعاد في الجنوب اللبناني، غير أن الأديب المؤلف أعطاها – أي الرواية – اسم "عين اسفينه" ليثير تساؤل ودهشة القارىء الذي سيكتشف في الصفحة ٦١ من الرواية أن هذا الاسم هو عين ماء جارية في الجنوب اللبناني، ماؤها عذب دائما، "وهي منعزلة في خفر بين شجيرات الدفلى الكثيفة هناك" ص٦١ ولو ان الكاتب اسمى روايته "مرج الزهور" مثلا لما كان تساؤل أو دهشة عند القارىء، لأن هذا الأسم اكتسب شهرة واسعة، ودخل كل البيوت، من خلال الفضائيات، في أزمة المبعدين اليه في حينه.

مضمون الرواية:

تتحدث الرواية عن عملية ابعاد اربعمائة وخمسة عشر فلسطينيا من الضفة الغربية، ومن قطاع غزة الى الجنوب اللبناني في كانون أول ١٩٩٢، وما تعرضوا له من تعذيب وتنكيل على أيدي عسكر الاحتلال اثناء نقلهم بالحافلات، حتى أصبح قضاء الحاجة أمنية من أمانيهم، وهم مكبلو الأيدي، مجبرين على طأطأة رؤوسهم، كما تتحدث عما لاقوه من عنت وحرمان، وبرد وحرّ، في ذلك المكان المنقطع في الجنوب اللبناني بين نارين، نار المقاومة من الشمال، ونار الاحتلال من الجنوب، كما تتحدث الرواية عن كيفية قضاء مدة هذا الابعاد الذي استمر عاما لأكثر من نصفهم، وتسعة شهور للآخرين، ومعروف أن المبعدين كانوا من المحسوبين على القوى الإسلامية الفلسطينية، وتحديدا حركة حماس وحركة الجهاد الاسلامي، فقد نصّب بعضهم نفسه قياديا على المبعدين، وشكل

مجلس "شورى" شكليا كما عيّن ناطقا إعلاميا، مستغلا بذلك نفوذه التنظيمي، وعدم جرأة الآخرين على معارضته، أو تذيل البعض له، خلافا لذلك الشاب الجريء صابر الذي كان قادرا على المعارضة، وقادرا بذكاء خارق أن يحقق النصر في ما يريده، مستغلا أخطاء القيادة، والثغرات التي ترتكبها في قراراتها، أو تناقضاتها، وفي الرواية تأريخ أيضا لقضية المبعدين لمرج الزهور، كما فيها رفض صارخ للذين يتاجرون بالدين لتحقيق مكاسب شخصية، وهم في نفس الوقت ينتقدون غيرهم على تصرفات ومسلكيات يمارسونها هم انفسهم.

رواية إشكالية:

واضح أن الرواية إشكالية من اسمها حتى خاتمتها مرورا بفصولها الأربعة عشر، ومعلوم أن ليس كل الإشكاليات سلبية، فإشكاليات هذه الرواية إيجابية، وتـــنبع إشكالياتها من عدة جوانب التي يمكن أن نتبين من خلالها شخصية المؤلف نفسه، فكما قال النقاد: أن الأديب عندما يكتب إنما يكتب سيرته الذاتية أو جزءا منها، وبغض النظرعن السيرة الذاتية، فإن عمق ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه واضحة جدا في الرواية، وثقافته غزيرة في مجالات عدة كما ظهر في الرواية، التي تميزت بوعي ديني وثقافة دينية واضحين، فانتماؤه الديني الواعي لا يخفى على القارىء الفطن، وكذلك عمق انتمائه الوطني والقومي، وثقافته الأدبية واطلاعه على التراث الأدبي العربي القديم شعرا ونثرا، وإحاطته بالعلوم الفلسفية، وفلسفته للأمور أيضا، وكذلك ثقافته الشعبية قديمها وحديثها، وهذا يدلل أيضا على فهمه للمجتمع الذي يعيش فيه، وقدرته على التحليل النفسي لشخصيات روايتة، فلكل حركة، أو نظرة، أو التفاتة، أو قول تفسير عنده، لذلك فإنه كان يحلل "القرارات" أو "الأوامر" فور صدورها، فما أعجبه منها أخذ به، وما لم يعجبه كان يعمل على إسقاطه.

الأسلوب:

اعتمد الكاتب في روايته على الأسلوب السردي المدعوم بالحجج والبراهين، فقد روى لنا تجربة الابعاد بقدرة فائقة، تخللها بعض الحكي وإن كان قليلا، كما أن اعتماده على الهوامش في تفسير بعض الأمور التي كان يتطرق اليها في المتن، كان مدهشا، فالسرد الذي جاء في الهوامش وكذلك بعض التفسيرات كان ذكيا وضروريا، لا إقحام فيه، وفي تقديري أنه لو جمع الهوامش لاستطاع كتابة رواية أخرى من خلالها.

التشويق:

طغى عنصر التشويق على الرواية بشكل جارف، فهي تسيطر على القارىء، وتشدّه، وتجبره على قراءتها حتى النهاية حتى وإن كان غير مخطط لذلك.

اللغة:

من خلال الرواية يتجلى لنا أننا أمام مبدع يمتلك ناصية اللغة، فلديه مخزون هائل منها، فقد أكثر من الوصف المحبب للأشياء، وللأشخاص، وكان في وصفه يدخل الى أدق التفاصل بلغة انسيابية جميلة، وليس من باب المبالغة أن نقول بأنه قد صوّر لنا ما كتب عنه، فنقلنا الى المكان والحدث، وكأننا نعيشه.

شخصية صابر

بالرغم من التنويه الذي وضعه الكاتب على الصفحة الخامسة بأن "صابر ليس هو الكاتب، لأنه أقل شأنا من ذلك" إلّا أنّ هذا النفي يكاد يحمل تأكيدا على عدم صحته، خصوصًا بعد قراءة الرواية وتتبع نمو شخصية صابر، وسواء كان صابر هو الكاتب نفسه أم لا، فإن ذلك لا يغير في الرواية شيئا، وإن كان يعطيها حميمية أكثر.

وشخصية صابر، كما تابعناها في الرواية شخصية لافتة للانتباه، فعدا عن مرارة اللجوء، وما يصاحبها من قسوة في الحياة، إلاّ أنه لم يجد من يدافع عنه، ويحمي طفولته، "أمّا لماذا لا يجد أحدا يدافع عنه، فجوابه معروف مسبقا لولد أبوه غائب لا يعود إلّا ليلا، ولا أمّ له ولا إخوة أكبر يدفعون عنه العدوان" ص٤٠ فلذلك لم تكن أمامه خيارات سوى الاعتماد على قدراته الذاتية في الدفاع عن نفسه، وأن تكون الغلبة له في عراكات الصبية، وهذا ما فطر عليه كما جاء في الرواية ص٤٠ أمّا إذا كانت الغلبة لأحدهم عليه فإنه "تعلم أن يبتلع هزيمته مع دموعه في صمت.. وما لا تدركه اليوم، فقد تدركه غدا... والمهم هو الصبر والانتظار" ص٤١ لذلك فإن هذه الفطرة التي فطر عليها هي التي دفعته بأن يتصدى "للدفش" ذلك الطالب متكرر الرسوب، والذي يكبره بعامين، والذي كان يفرض هيبة على الطلبة الآخرين بكثرة اعتداءاته عليهم، فلذلك وعندما هجم "الدفش" عليه بقضيب حديد "تلقفت يداه القضيب، وتشبثتا به تشبث القتيل برقبة قاتله" ص٤٢ و "بقوة الحياة ضرب، بقوة الخوف ضرب... ضرب برأسه أنف الدفش وعينيه، وسال الدم... وصار "الدفش" يصرخ ويجأر مثل ثور مذبوح" ص٤٣.

وحرمان الطفل صابر من حنان الأمومة، ومن رعاية الأب وقسوة الحياة في المخيم، والاعتماد على الذات، هي بمثابة الملامح الأولى لبناء شخصيته، هذه الشخصية التي تطورت لاحقا، وأكملت تحصيلها العلمي في ظل حرمان شديد، وأجواء لا تساعد على التعلم، وليأتي الاحتلال، وليجد صابر نفسه في مواجهة مع هذا الاحتلال، وليتم اعتقاله لاحقا وإبعاده مع آخرين الى الجنوب اللبناني، وهذه الشخصية الصدامية، لم يكن من السهل اقتيادها فإذا رفض أن يُقاد طفلا، فمن الاستحالة أن ينقاد شابا، فلذلك كان صدامه مع المتنفذين من المبعدين، وكان معارضته واعية ونقاشاته حادة في الأمور التي كان يراها خاطئة، وقوة شخصيته مكنته من ذلك.

لقد كان صابر إحدى الشخصيات الرئيسة في الرواية، إن لم يكن هو الشخصية الأولى فيها.
يبقى أن نقول بأن الرواية تشكل إضافة نوعية للمكتبة العربية وللرواية العربية،ومن الأهمية بمكان أن تجري عليها دراسات جادة،مع التأكيد أن لا غنى عن قراءتها.

وبعده تحدث **محمد موسى سويلم** فقال :
نعم المحكمة عقدت جلستها والشاحنات على أبواب معبر زمره، فالحكم جاهز للتنفيذ، وما هي إلّا ذرّ للرماد في العيون، تحدث في البداية عن مسألة في غاية الأهمية ألا وهي كسر حاجز الخوف والمواجهة بين الأطفال الفلسطينيين بصدور عارية إلّا من الايمان والحبّ، والجيش الاسرائيلي الذي يعتبر من أقوى الجيوش وأكثرها قسوة على الأرض، وأصبحت كلمة خوف في قاموس غير قاموس الأطفال، وأمّا المواجهة فأخذت طابع الندية والتحدي – بل إصرار على التحدّي، نعم سارت الرواية، بخطى ثابتة تعكس واقعا وراءه واقع آخر، أي رغم الألم والإبعاد، إلّا أن الابعاد اتخذ منحى ذا طابع هزلي رمزي استعاري، وردّ فعل أصبح يحمل معاني كثيرة، وما عملية التبول التي تمت تحت بصر الجنود إلّا رمز للإهانة والسخرية والانكسار والهزيمة لجيش استعمل كل انواع الأسلحة والعقوبات النفسية والجسمية .. الخ .
لأناس بل أطفال لم تلن لهم فناة .

دخلنا مخيم مرج الزهور، نتحدث عن الشيخ تبارك والصحافية والحديث الصحفي، وتدخل الدكتور في الترجمة. وحول الوضوء والاستنجاء (إزالة النجاسة) ووصف أحد المبعدين بالكاهن والحاخام فيما بعد (١١٠ –١١١) هل فعلا هنالك كاهن مع المبعدين؟ عن الصحافة والمؤثرات بأنها نوع من الدعاية

الشخصية والمقالب والنكات .. الخ، أربع صفحات ص ١١٩-١٢٠- ١٢١- ١٢٢ عن سيدنا موسى عليه السلام والحبل والكلب الممسوخ وعين الماء، وما علاقة هذا بالرواية؟ ولماذا كل هذه المقدمة؟ وما علاقتها بالمبعدين؟ وعن الحبّ والزواج والمعاشرة الزوجية والجواري والسبايا وطرق البيع، وطريقة العرض للبضاعة، وتحته زوجتان، ما هذا حديث يحسبة الظمأن ماءا، هل هو للهو ؟ وهل هذا هوحقيقة المبعدين؟ ... أمّا التمرد فيما هو تمرد صاحب بابور الكاز على الواقع، أم تمرد الشباب على الشيوخ والمسؤولين وصناع القرار، أم تمرد المئة وواحد على البقية الباقية في المخيم ، دار نقاش حاد حول المبعدين المئة وواحد، وفي أثناء النقاش وتداخل الآراء والصيحات والاتهامات لبعضهم البعض، والاختلافات والتصريحات والمعاني الكثيرة حول الديمقراطية والشورى في مخيم الإبعاد،هذا جاء من أجل توضيح معنى الديمقراطية والشورى ناسين أو متناسين الهموم والمشاكل والحياة في مخيم فرض عليهم فرضا، وليس الوقت مناسبا لإقامة الأيّام الدراسية عن الديمقراطية والشورى، مع أنه قد يكون جزءًا من عمل ثقافي بين الفينة والفينة، وليس تحديا لمفاهيم لسنا بصددها .

(ص ١٧٦) هكذا تكون الدولة الإسلامية وإلا فلا، ما هذا؟ تساؤل أحزن الكاتب، أم استهتار بتصرفات أناس لم يكن بينهم تفاهم، أم على ما جرى من واقع في مخيم الإبعاد كما يراه الكاتب؟ وعبر عنه بأسلوبه الخاص، في بداية الكثير من الفصول كتب الزمان كذا وكذا في يوم في شهر في سنة المكان الدولة الإسلامية .. أو بين الدولة الإسلامية ومعبر زمريا .. أو بين الدولة الإسلامية الراقصة بين جنوب لبنان ومناطقه المحررة .. إلخ . هل فعلا قامت الدولة الإسلامية وأصبح لها حدود وخليفة ووزراء وأمراء و ... إلخ ثم انحلت الدولة بعد عودة المبعدين وأزيلت ولم يعد لها ذكر هناك؟ وإذا كانت هكذا هي ... فماذا نقول حين عودة النازحين ... المبعدين .. المشردين ... اللاجئين .. . المبعدين؟.. هل تزول

دولهم .؟. الأولى أن نقول مرج الزهور أو مخيم مرج الزهور، لأن هذا الاسم يجب أن يبقى في ذاكرة جميع الفلسطينيين ورمزا للعجز والقوة .. للقيد والتحرر .. الكبرياء والإهانة والذل ورمزا لكل المهجرين والمبعدين والنازحين (الذين تم نزحهم) أفرد الكاتب صفحات عدة عن المقالات الصحافية، وأفرد أيضا صفحات عن الاستفادة الشخصية من المانحين الذين تعاطفوا مع القضية، وعن الاستغلال البشع اللا إنساني لتلك الفترة.

أبدع الكاتب بالوصف الدقيق جدا في إبراز الملامح الإنسانية والشخصية لكثير من الشخوص في الرواية، ابتدأ من الحطة والعقال والكوفية واللفة على الرأس الى كل الجسم، كما أبدع في وصف المناظر الخلّابة للطبيعة في مرج الزهور، وقد رسم صورة دقيقة لأكثر من شخصية استطاعت أن تستوعب الحدث بكل أشكاله وأطيافه، وأرّخ لكثير من الشخصيات في وطنها، واستحضر الماضي لكثير من هذه الشخصيات التي أصبح الإبعاد لها جواز سفر، فمنهم من استطاع أن يثبت ويرتقى ،ومنهم من طواه الزمن، إن هذا الوصف ذكرني بالكثير من الأدباء مثل نجيب محفوظ في قصته خان الخليلي، واحسان عبد القدوس في قصته الوسادة الخالية، من كثرة الوصف والتحقق في الشخصيات، فهذا الوصف الدقيق أوقع الكاتب في حساب بسيط، فهو يقول عشر حافلات في كلّ حافلة خمسة وأربعون، وكررها أكثر من مرّة من (ص ١٣-١٤) ٤٥× ١٠= ٤٥٠ مبعدا لكن الواقع هم ٤١٥ مبعدا فأين الخمسة والثلاثون، ثم نعود أدراجنا الى ص (٥) ماذا يقول الكاتب :

صابر ليس هو الكاتب، لأنه اقل شأنا من ذلك

والشيخ ذياب ليس شخصا آخر، لأن الشخص الآخر أسوأ من ذلك

وكذلك الشخصيات الأخرى وكل ما هو هنا كذب واختلاق، لأن ما هو صدق لا يحتاج للرواية كما لا يصلح للحياة .

لماذا صابر أقلّ شأنا من ذلك، وليس الكاتب فهل هناك صفات معينة للكاتب وصفات لغير الكاتب؟ والشيخ ذياب ليس شخصا آخر، لأن الشخص الآخر أسوأ، ما هذا؟هل نعود الى الفلسفة وعلم النفس والأحاجي والألغاز ونبدأ بالتحليل من جديد؟ ثم إن كان كلّ ما هو هنا كذب، إذا فما الفائدة المرجوة من الرواية؟ ولماذا نقرأ كذبا؟ وعلى من نكذب على أنفسنا أم على وطننا أم على الآخرين؟ ولماذا لا يصلح الصدق في الرواية رغم رموزها ومعانيها وحقيقتها، والواقع الذي عبر عنه بعفوية يراد بها مصلحة الجميع؟ لقد أبدعت في لفت نظر من أراد الى كل من لهم شأن، نعم يا سيد خضر محجز أبدعت في الكثير، وقدمت الكثير، وكان لوقع الأمثلة الشعبية معان كثيرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وبعده تحدث **موسى أبو دويح فقال:**
قدّم الكاتب لكل فصل من روايته بما يناسبه من شعر أو نثر، حديث شريف، أو خطبة لعمر بن الخطاب في القضاء، أو بيت شعر أو بيتين أو أبيات، وغالبا ما كان التقديم مناسبا للفصل .

والرواية تدور أحداثها حول إبعاد اليهود لأربع مئة وخمسة عشر فلسطينيا الى الأراضي اللبنانية ، وزمنها وتواريخها حقيقية وأماكنها كذلك، ولكن أسماء الشخوص مستعارة

والمبعدون أو أكثرهم من الحركة الاسلامية، ومن ذوي الإتجاه الإسلامي والميول الإسلامية ومن حركة حماس، وقليل منهم من حركة الجهاد الإسلامي ، لذلك نجد الكاتب كثيرا ما يقول في بداية كل فصل، المكان، الدولة الإسلامية الواقعة في المنطقة الحرام الفاصلة بين جنوب لبنان المحتل ومناطقه المحررة.

انتقد الكاتب رجال الحركة الإسلامية انتقادا لاذعا، وغمز من طريقتهم في اتخاذ القرارات وادعاءاتهم غمزا قويا صائبا، ولقد كان الكاتب فيه محقا في رأيي .
وأضمن كتابتي هنا بفقرة من الفصل الرابع يقول فيها الكاتب .

(لماذا دعي صابر، بعد ذلك الى خيمة الاجتماع؟ لا أحد يدري على وجه الدقة، ولا أحد عليه أن يتصور، للحظة واحدة، أن السبب وراء هذه الدعوة، يكمن في الحرص على مكانة شخص قوي مكافح وراءه آخرون ، فلا أهمية هنا للآخرين، ولا اعتبار هنا للكفاح والقوة في مواجهة عبارة من نوع (اجمع الأخوة) وهم في الحقيقة غير مجمعين ولا مجتمعين، كما لم تكن طبيعة صابر المشاكسة قد فضحته بعد عند هؤلاء نظرا لطول الافتراق بفعل السجن – حتى يظن أحد بأنه قد دعي دفعا لمشاكسته المتوقعة، المهم أنّه دعي وقد كان مستحقا لهذه الدعوة، وحريا به أن يثير الكثير من المنغصات.)

والكاتب على علم ودراية بما عند أصحاب الحركة الاسلامية من ادعاءات وتبريرات، كما في قوله (أجمع الأخوة) حتى يمرّروا مرّا ما يريدون تحت شعار ولافتة (أجمع الأخوة) وهم في الحقيقة غير مجمعين ولا حتى مجتمعين، وهذا كذب وافتراء واختلاق، والمهم أنه صادر عن أقطاب الحركة الاسلامية ، وهذا يعني أنهم لا يسألون عن الحكم الشرعي إذا أرادوا تحقيق أمر من الأمور، وينسون الالتزام بالاسلام وأحكامه، وإذا وضعوا نصب أعينهم تحقيق هدف ما، فالشرع والالتزام به آخر ما يخطر لهم على بال وهذا مما يوسف له .
لغة الكاتب جيدة وسرده للوقائع رائع، وأسلوبه سلس وسهل وواضح، وجاء استعماله للغة العامية في محله ومقبولا.
وبعده تحدث **خليل سموم** فقال :

رواية خيالية، بل هي من صميم الخيال، تكشف لنا بأن مؤلفها ذو موهبة فذّة في ميدان التخيل .

لهذا، ولأن الكاتب كان صادق النية، وبلا أهواء، وغير متحيز إطلاقا الى جهة ما، ولا يبغي إلّا كشف الحقيقة، ولأنه كذلك لم يدع صفة من الصفات الإنسانية الإيجابية عند قوم إلّا وذكرها في كتابه هذا، لهذا كله، فإننا نشكره أشدّ الشكر .

لكننا وبشدة وبإصرار، لا ننصح بقراءة الكتاب إطلاقا، خوفا من أن يصاب القارئ بالعمى من شدّة ضوء حسن النية لدى كل من المؤلف واتحاد الكتاب الفلسطينيين ، وخوفا كذلك من أن يتقيأ بشدة، ويموت نتيجة قرفه من تصرفات من كان يعتقد أنهم أشبه بالملائكة، فإذا هم بأخلاقهم المعدومة أدنى مرتبة من أحط مخلوقات الله .

حقا، إن الكاتب يستحق منا كل الإعجاب والتقدير والاحترام، ونقول له: لقد كفيت ووفيت، فلا تقترب إطلاقا من ميدان الكتابة، لأنك جاهدت كثيرا في تأليف هذاالكتاب العظيم، وأدّيت واجبك بكل إخلاص في ميدان التأليف، وأتممت رسالتك تجاه الأجيال، وكنت وفيّا للتاريخ، وعرفنا ما عندك، ونخاف على صحتك، ليعطك الله العافية.

وشارك في النقاش كل من: **ابراهيم جوهر، د.وائل أبو عرفة وديمة السمان**.